

المعرفة الصوفية ودورها في تفعيل الغاية الوجودية للإنسان

Sufi Knowledge and Its Role
In Realizing the Human Existential Purpose

ط/د أحمد تقي الدين قسول

جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية - خروبة

مخبر مناهج البحث والتقويم في العلوم الإسلامية ومقاصدها ومسالك تقويمها (الجزائر)

t.kassoulahmed@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول: 2025/11/22

تاريخ الارسال: 2024/04/03

ملخص:

تعددت المذاهب والرؤى الإسلامية التي تناولت مسألة الغاية من خلق الانسان ووظيفته في هذه الدنيا وسبل تحقيقها، كل حسب خلفيته المعرفية ومرجعياته الدينية، ويعد المنتج المعرفي الصوفي من النماذج الرائدة في الاهتمام بالإنسان وماهيته ووظيفته في هذه الحياة إلا أنه شاع عن هذا الفكر اقتصره على الاهتمام بالجانب الروحي فقط وعزلته عن مجالات الحياة وانشغالات الناس وهمومهم، فجاءت هذه الدراسة لبيان أهمية المعرفة الصوفية ودوره في تفعيل الغاية الوجودية للإنسان وتحقيق مقصود الله سبحانه وتعالى من خلقه له، وذلك من خلال الإجابة عن الإشكال الآتي: ماهي الخلفية المعرفية التي استند إليها المعرفة الصوفية في تنزيل مضامين الوحي وتفعيلها في شعاب الحياة؟ وما هو المنهج الذي اعتمده في حث الانسان وتحفيزه على تأدية ما كلف به؟

وقد حاولنا من خلال هذا البحث الاجابة عن هذا التساؤل معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي والتحليلي، وخلصنا إلى أن أهل التصوف أهل علم وعمل، وأهل دين ودنيا، وأصحاب رؤية توحيدية سليمة، وأنهم ساهموا ولا يزالون يساهمون في بناء الانسان وتربيته على طاعة مولاه وحثه على الخير وعلى أن يكون فاعلا في هذه الدنيا.

الكلمات المفتاحية: التفكير؛ المعرفة، التصوف؛ الغاية الوجودية؛ الخلافة؛ الانسان.

Abstract:

Islamic intellectual traditions have developed diverse perspectives on the purpose of human creation, the existential role assigned to humanity in this world, and the means of fulfilling it—each grounded in its own epistemic framework and religious foundations. Within this context, Sufi thought constitutes a distinctive model that places the human being—his nature, vocation, and ontological status—at the center of inquiry. Despite this, Sufism has often been stereotypically reduced to a purely spiritual pursuit, detached from the practical concerns of social life.

This study seeks to highlight the epistemological significance of Sufi knowledge and its contribution to actualizing the human existential purpose in accordance with the divine intent of creation. It addresses the following principal question: What epistemic foundations underlie the Sufi understanding of revelation, and how does Sufi thought translate the meanings of scripture into lived experience? Furthermore, what methodological framework does the Sufi tradition employ to cultivate the human being and motivate him to fulfill his entrusted responsibility?

Employing descriptive and analytical methods, the study concludes that Sufism embodies both knowledge and praxis, and advances a unified, holistic vision of religious and worldly engagement. Historically, Sufis have played-and continue to play-a formative role in shaping the human being, nurturing obedience to God, promoting virtue, and encouraging meaningful participation in worldly life.

Keywords: Thought; Epistemology; Sufism; Existential purpose; Vicegerency; Human being

1. مقدمة:

الحمد لله الذي أحَبَّنَا فخلَقْنَا، ونَفَخَ فينا من روحه، وفضَّلنا على كثير من خلقه، فشرَّفنا بالعقل، وكَلَّفنا بالنَّقل، وأَمَدَّنَا بالعلم، وقابل تقصيرنا بالحلم.

والصلاة والسلام على حبيب رب العالمين، وسَيِّد الخلق أجمعين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد الصَّادق الأمين، وعلى آلِه وصحبه الطَّيِّبين الطَّاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، ثم أَمَّا بعد؛

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان، وعَلَّمه الأسماء كُلَّها، ووهبه مع ذلك الملكات والمقومات التي تمكنه من فهم خطابه إليه، ليؤدي وظيفته الوجودية المنوطة به على أكمل وجه بإذن الله. فاستحق بذلك أن يكون خليفة الله في ملكه، بقوله تعالى لملائكته في محكم تنزيله: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " (سورة البقرة/ الآية 30)، وأسجد له ملائكته إعلاء لشأنه، وأورثه أرضه يتبوأ منها حيث يشاء، وحَمَلَه أمانة التصرف في ملكه وفق مراده عز وجل.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، تعددت المذاهب والرؤى في تنزيل المضامين الإلهية لتفعيلها إنسانيا عبر بوابة التكليف، حيث كان للخلفية المعرفية لأصحاب المذاهب الإسلامية السَّنيَّة المتنوعة دور في إبراز هذه الخصوصية، سواء ارتبطت بالمقاربة الكلامية، أو التشريعية، أو الصوفية الإحسانية، وعلى هذا الأساس اخترنا أن يكون بحثنا متمحورا حول خصوصية المنتج المعرفي الصوفي في الفكر الإسلامي، ودوره في فقه تنزيل الغاية الوجودية للإنسان تفهيمًا وتشغيلًا، وهذا ما يجعلنا نقف أمام الإشكالية الآتية: ما هي الخلفية التي استند إليها التفكير الصوفي والمعرفة الصوفية لتحديد أسس ومناهج تفعيل الغاية الوجودية للإنسان؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية لا مناص من تفكيكها إلى تساؤلات فرعية: ما هو التفكير الصوفي؟، وما هي المعرفة الصوفية؟ وما العلاقة بينهما؟ وما نظرتهما لماهية الإنسان؟، وكي نصل إلى غاية بحثنا لأبد لنا- كذلك- من بيان الرؤية والمنهج المتبعين من طرف هذا التكامل بين الفكر والمعرفة الصوفية، لتفعيل هذه الغاية وسبل تأديتها على أكمل وجه بما يقارب مراد الله عزَّ وجل بإذن الله.

2. مدخل مفاهيمي:

يقوم الدين الإسلامي على ثلاثية عقدية وتشريعية وسلوكية، يتناول شرحها وتوضيحها للناس كل من الدرس الكلامي والفقهية والأخلاقي ويختص بتدريس هذا الأخير أهل السلوك والتزكية أي المتصوفة.

بناء على ذلك يمكننا القول أنّ المعرفة الصوفية مبنية على رؤية إحصانية لما سوى الله وعلاقة المرء بالله وهي جزء من رؤية توحيدية شاملة.

واختيارنا لمصطلح المعرفة الصوفية بدل التفكير الصوفي، للفرق الظاهر بينهما من حيث مضمون البحث، فالدّارس للفكر الإسلامي يدرك جليا الفرق المنهجي في مجال المعرفة الإلهية بين المتكلمين والفلاسفة من جهة وبين المتصوفة من جهة أخرى، فإذا كان الأوائل قد اعتمدوا على النظر والاستدلال، فإن المتصوفة قد سلكوا مسلكا آخر يتمثل في السلوك الروحي عن طريق التّصفية والتّطهير والكشف¹، أي أن جوهر الخلاف بينهم هو سؤال كيف يُعرف الخالق؟ أبالنظر والاستدلال أم بالكشف والالهام عن طريق المجاهدة والذكر والتّصفية؟

وما نحن بصدد بيانه في هذه الورقة البحثية هو كيف يفكر المتصوفة وكيف يتصرفون بعد أن عرفوا خالقهم وعرفوا مراده منهم، وكيف يساهم تفكيرهم ومنهجهم في تفعيل الغاية الوجودية للإنسان.

1-2 تعريف الفكر والتفكير واللغة واصطلاحا:

1-1-أ الفكر لغة:

جاء في لسان العرب، لابن منظور: «الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والفكرة كالفكر والاسم "الفكر" ...، والمصدر "الفكر" والفتح أفصح من الكسر»².

وجاء في تاج العروس: «الفكر، بالكسر، ويفتح: إعمال النظر هكذا في النسخ. وفي المحكم: إعمال الخاطر في الشيء، كالفكرة»³.

¹ د. محمد عيواز، مقال مفهوم المعرفة عند الصوفية، معهد الغزالي، باريس، ص3.

² ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط3، 1414هـ، ج15، ج5/ص65.

³ مرتضى الزبيدي، تاج العروس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج40، ج13/ص345.

أما التفكير: فهو اسم للتفكر، والتفكر: التأمل.⁴ وفكر تفكيراً وتفكر، وفي استعمال العامة: افكر، والمعنى: تأمل...، وفي الصحاح: التفكر: التأمل.⁵

1-2-ب الفكر اصطلاحاً:

يقول أبو حامد الغزالي: «اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة».⁶ وقد جعل الفكر مرادفاً للتأمل والتدبر.

وبالنسبة لإمام الحرمين الجويني، يدل الفكر على النظر، يقول: «والنظر في اصطلاح الموحدين هو الفكر، الذي يطلب به من قام به علماً أو غلبة ظن؛ ثم ينقسم النظر إلى قسمين: إلى الصحيح وإلى الفاسد».⁷

وعرفه طه جابر العلواني بقوله: «الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الانسان، سواء أكان قلباً أو روحاً أو ذهنًا بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء».⁸

وجاء عن الراغب الأصفهاني قوله: «الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم».⁹

1-2-ج مصطلح التفكير:

فهو استعمال لتلك القوة حسب توجيه العقل أي «جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله" إذ كان الله منزهاً أن يوصف بصورة. قال تعالى: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ" (سورة الروم/ الآية 8)».¹⁰

⁴ المرجع نفسه، 65/5.

⁵ المرجع نفسه، 345/13.

⁶ أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، 4/425، دار الندوة الجديدة، بيروت.

⁷ أبو المعلي عبد الملك الجويني: كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط.1، 1985، ص.25.

⁸ طه جابر العلواني: الأزمة الفكرية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، ط.1، ص.27.

⁹ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان الداودي، دار القلم، دمشق، سوريا، ط.1، 1412هـ، ص.643.

¹⁰ المرجع نفسه، ص.643.

والتَّفَكُّيرُ في مَوْضُوعٍ ما، هو إعمال الفكر فيه، وإمعان النَّظَرِ تفكير صائب.¹¹

فمصطلح التفكير يأتي على وزن تفعيل، الذي يوجي إلى وجود حركة في الفعل، ومثال ذلك قولنا: حركَ زيد السيارة، أي أن السيارة انتقلت من نقطة "أ" إلى نقطة "ب"، فزيد هنا قام بتحريك السيارة من مكان إلى مكان، وهذا يفيد معنى آخر وهو أن السيارة لم تتحرك بنفسها، بل هناك من حركها، والأمر نفسه في كلمة تفعيل، أي هناك مُفَعِّلٌ قام بالفعل، « فحينما نقول فَكَّرَ أو يفكّر أو تفكّر فهي كلمة تدلّ على حدث هو الفكر، وتدل على الذات الفاعلة لهذا الحدث التي نسميها بالمفكّر»¹² لذلك فقولنا تفكير يشير إلى وجود من يقوم بعملية التّفكير، وهو المفكّر، ولم يرد في القرآن الكريم لفظ مادة (ف ك ر) مصدرا أو اسما، بل وردت آيات الفكر إما بصيغة الماضي أو بصيغة الحاضر، كقوله تعالى: " إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ " (سورة المدثر/ الآية 18) فهنا جاءت بصيغة الماضي، وفي سورة الأنعام مثلا (وغيرها كثير) جاءت بصيغة المضارع في قوله تعالى: " أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ " (سورة الأنعام/ الآية 50).

فحين يورد القرآن الكريم مادة (ف ك ر) بهذه الصيغة، «كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينهنا إلى أن هذا العمل الذّهني الذي يسّى بالفكر -الذي هو خصيصة إنسانية- إنما هو عمل مرتبط بذات، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكّر، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون فيما لا طائل منه، وفيما لا عمل أو حركة في هذا الكون تبني عليه»¹³

وعليه يمكننا الاستنتاج أن القرآن الكريم حث على الفكر، وإعمال العقل بالتدبر والتفكير في الكون، للوصول إلى أمور مجهولة بناء على معطيات معلومة، يتحرك وفقها لتقديم إضافة خيرية للكون والوجود والحياة، فيكون بذلك أحسن استخدام الملكة العقلية التي أورثه إياها خالقه عز وجل، وأكرمه بها وميزه بها عن غيره، باستعمالها فيما وُضعت لأجله.

¹¹<https://www.almaany.com/ar/dict/ar->

[/ar/%D8%AA%D9%81%D9%83%D9%8A%D8%B1](https://www.almaany.com/ar/dict/ar-%D8%A%D9%81%D9%83%D9%8A%D8%B1)، 16.00 سا، الجزائر العاصمة.

¹² طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض-السعودية، ط4، 1994م، ص26.

¹³ المرجع السابق، ص26.

2.1.د. المعرفة الصوفية

جاء في الرسالة القشيرية أن: «المعرفة على لسان العلماء (أي الصوفية) هي العلم فكل علم معرفة؛ وكل معرفة علم؛ وكل عالم بالله عارف؛ وكل عارف عالم. وعند هؤلاء القوم المعرفة:صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته؛ ثم صدّق الله تعالى في معاملاته؛

ثم تنقّى عن أخلاقه الرديئة وآفاته...إلى أن قال ... يُسَمَّى عند ذلك "عارفاً"، وتُسَمَّى حالته "معرفة". "المعرفة نور يقذفه الله في القلب، يعرف به العبد ربّه..."¹⁴ فالمعرفة عند الصوفية هي إدراك مباشر وشهودي للحقائق الإلهية، يُلقى في قلب العبد بعد تهذيب النفس وتزكيتها وتطهيرها من الهوى والشهوات وحب الدّنيا، حتى تصير معلقة بالله ولا ترجوا سوى الله، فيكشف الله عنه الحجاب ويقذف فيه قلبه نورا يعرف به حقائق الأشياء.

وقد عرّف الغزالي علم المكاشفة أنّه: « العلم الباطن الذي لا يُعبّر عنه بعبارة... ولا يُدرّك إلا بالذوق بعد صفاء القلب»¹⁵، ولا يقصد الغزالي بالعلم الباطن، بالمعنى الإسماعيلي فهذا معنى باطل ليس من الشرع في شيء، بل يقصد به العلم الذي يتعلّق بأسرار التوحيد، وحقيقة الإيمان، ونور المعرفة بالله، وهذا علم لا يمكن تداوله بالعبارة فهي لا تسعه، لأن طبيعته شهودية ذوقية، لا يعرف حقيقتها إلا من عاش تجربة وجدانية خالصة صادقة، فهو علم لا يعتمد في تحصيله على البرهان العقلي وحده، ولا بالمذاكرة والمدارسة بين الأقران، بل بالمعايشة الروحية المتمثلة في الذكر، والخلوة، وصفاء القلب...الخ، فالمعرفة إذن صفة الأولياء ولا ينالها من لم تكن له سابقة في مجاهدة النفس وتهذيبها على طاعة الله سبحانه وتجنّب معصيته، واتباع نبيه الكريم والالتزام بشرعه الحكيم، وقد سئل أحد الصالحين عن حاجة المعرفة فقال: «حاجتهم إلى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلّها، وبفقدتها قبحت المقابح كلّها وهي الاستقامة»¹⁶.

¹⁴ الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، تج: يوسف علي بديوي، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2014م، ص446.

¹⁵ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، أشرفت عليه اللجنة العلمية لدار المنهاج، دار المنهاج، جدة- السعودية، ط2011م، ج9/ ج1، ص91.

¹⁶ أبو التّصّر سراج الطّوسمي، اللّمع، تحق: عبد الحليم محمود، طه سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، ط1960م، ص58.

نخلص إلى أن المعرفة موهبة لا كسب، فهي نور يقذفه الله في قلوب عباده الصالحين، وعلى قدر استعدادهم يكون إمداده له عز وجل، وهي إدراك حضوري ناجم عن الذوق لا عن الوصف، ومن عايشها لا يمكنه التعبير عنها كلها بل يكتف أحيانا بالرمز والاشارة فقط، وميزانها الشرع، وكل كشف مخالف للوحي لا يؤخذ به، وهذا دستور الصالحين، وإن بدا من تصرفاتهم غير ذلك أحيانا فهي أحوال خاصة لا يؤخذ بها في أمور الشرع، وقد جاء في الإحياء:

فكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيرا ولا تسأل عن الخبر¹⁷.

أما التفكير عند الصوفية (كما تقدم)، فهو ناجم عن إعمال العقل والفكر في التأمل في آيات الله، والاعتبار بما في الكون مع حضور القلب، وهو بمثابة اللبنة الأولى لتلقي المعرفة الإلهية، يجمع بين الرياضة العقلية والروحية، وبصورة أوضح يعد التفكير عند الصوفية بمكانة الوسيلة التي تهيئ القلب لتلقي المعرفة الإلهية، بينما تعد المعرفة ثمرة وغاية. قال الغزالي: «التفكر مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف»¹⁸.

ختاما لما سبق يمكننا القول أن المعرفة الصوفية هي المرحلة النهائية في التفكير الصوفي أو هي الغاية التي يصل إليها تفكيرهم وهي معرفة الله سبحانه ومعرفة حقائق الوجود، والتي تكون لهم من خلال مجاهداتهم في خلواتهم وحلهم وترحالهم بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، فاستطاعوا بذلك أن ينشؤوا لنا مسلكا تربويا سائغا خالصا، جمعوا لنا فيه خلاصة تجاربهم الروحية، ميزانه الكتاب والسنة، وموضوعه الانسان، وميدانه أرض الله الواسعة، وغايته تحقيق مقصد الخلافة على هذه الأرض وعمارتها وفق مراد الله عز وجل، وشعاره أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

2.2 تعريف التصوف اصطلاحا:

للتصوف تعريفات عديدة، اختلفت في تعبيراتها واتفقت في معانيها، نذكر منها ما يلي: قال الامام القشيري -رحمه الله:-

¹⁷ ورد البيت في كتاب كشف علم المكاشفة، إحياء علوم الدين، ج4، ص 430.

¹⁸ المرجع نفسه، ج5، ص152.

«التصوف الدخول في كل خُلُق سُني والخروج عن كل خلق دني»¹⁹، أي أنَّ التصوف هو الاتِّصاف بأوصاف الكمال الديني والخلقي؛ فيصير بذلك صفة ملازمة للنفس لا مجرد رسم أو صورة. ومنهم من عرفه بقوله: «أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت»²⁰، وإذا كان الإنسان مطالب بطاعة الله وفعل ما يرضيه في كل لحظة ونفس، فلاشك أن كل عمل يقوم به يجب أن يكون ضمن طاعة الله، ومن ضمنها أداء خلافته عن الله بما أراد الله، فيُسخر كل جزء من وقته لذلك، فإن كان لهوا فهو لأجل الترويح عن النفس وشحن طاقتها على مواصلة الطريق، وإن كان طلب علم ديني فهو للتقرب أكثر من فهم رسالة الله عز وجل لخلقه، وإن كان طلب علم دنيوي فهو لتسخير الكون خدمة لسكان المعمورة وفق ما يرضي الله... وهكذا، فالإنسان مطالب بإشغال نفسه في كل وقت بما يقربها من خالقها ويُفعل حركتها في الوجود، فالصوفي الصادق هو الذي لا يشغله في وقته مع الله شاغل خارجي، أي يكون دائماً مشغول القلب بالله وحده.

وقال الجنيد -رحمه الله-: «الصوفي كالأرض يطؤها البرُّ والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل شيء»²¹.

أي أن الصوفي في طبعه متسامح مع الخلق ويؤثرهم عليه؛ ولا يفرق في معاملته الناس على أساس ديني، أو قومي، أو نوعي (بين الذكر والأنثى)، فهو يرى الخلق كلهم خلق الله، وتأدبه معهم تأدبا مع الله.

ويمكننا تلخيص المعنى الشامل للتصوف فنقول: هو منهج تربوي ومعرفي يقوم على تهذيب النفس وتصفية القلب، حتى يتمكن الإنسان من إدراك حقائق الإيمان ومراتب اليقين عن طريق المجاهدة والمراقبة والذكر، وما ينشأ عنها من صفاء البصيرة وانكشاف المعاني الإلهية. ويقوم التكامل في التصوف على بلوغ الإنسان درجة الكمال الإيماني والأخلاقي الذي يتحقق به الاستخلاف في الأرض.

¹⁹ المرجع السابق، ص 126.

²⁰ المرجع نفسه، ص 407.

²¹ المرجع نفسه، ص 408.

3.2 التفكير الصوفي :

إننا ما ذكرناه من تعريفات للتصوف -وغيرها كثير- يحيلنا إلى أنه شامل لعدة خصال حميدة منها: التخلق بالأخلاق الحسنة والتأدب مع الحق أولاً ثم مع الخلق ثانياً، واحترام الوقت، وعدم الغفلة عن ذكر الله في كل حين، والتواضع للخلق وخدمتهم وإيثارهم على النفس، وأن الصوفي مستغرق في طاعة الله والحرص على ما يرضيه وتجنب ما يسخطه، وإذا علمنا أن الفكر هو إعمال القوى المفكرة في الإنسان في شئ معلوم، للوصول إلى شئ مجهول، وأن التفكير هو جولان تلك القوة وتوجيهها بحسب نظر العقل، بناء على رؤية صحيحة تعود عليه وعلى الكون بالخير، وتجلب النفع للمخلوقات كافة.

يمكننا الخلوص إلى تعريف عام للتفكير الصوفي فنقول هو: تحريك للعقل والروح، للنظر والتدبر في الوجود، للوصول إلى تفعيل الإرادة العملية للإنسان وأداء وظيفته الوجودية، وذلك بمراعاة متغيرات الزمان والمكان، وتحديات الراهن للمجتمعات، وفقاً لرؤية توحيدية وأخلاقية للكون والوجود والحياة.

بعد بياننا لمعنى التكامل بين التفكير الصوفي والمعرفة الصوفية والرؤية التي يستندان إليها في تفعيل حركية الإنسان في الوجود، يحسن بنا الانتقال إلى ماهية الإنسان في المعرفة الصوفية من خلال العنوان الآتي.

3. ماهية الإنسان في المعرفة الصوفية:

1.3 حقيقة الانسان:

ماهية الشيء هي عناصر الحقيقة التي تجعل من شيء ما شيئاً متميّزاً عن كل ما سواه، أي هي الخصائص التي يتميز بها عن غيره²²، والإنسان لما كان من جزئين بدن محسوس وروح معقول، كان له بحسب كل واحد منهما صورة، فصورته المحسوسة البدنية: انتصاب القامة والضحك، وصورته المعقولة الروحانية: العقل والفكر والرؤية والتّطق، الذي على أساسه تم تعريف الإنسان أنه حيوان ناطق²³، أي ميزة النطق هي خصيصة من خصائص الإنسان التي يتميز بها عن غيره من المخلوقات.

²² عبد المجيد النجار، مبدأ الإنسان، ص 25.

²³ الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص 35.

وقد ورد عن العالم السني الصوفي بديع الزمان سعيد النورسي ما مفاده أن حقيقة الانسان تتجلى في منح الله سبحانه وتعالى له «منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة، وعرفه بهذه الماهية فسمّاه خليفة يشغل رتبة الخلافة في الأرض ويحمل مهمة الأمانة الكبرى».²⁴

استصحبنا لتعريف الماهية أنها حقيقة الشيء وأن حقيقة الشيء ما يميزه عن غيره، نجد أن الله سبحانه وتعالى حدد ماهية الانسان قبل خلقه، فقال لملائكته: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.." (البقرة: 35)، فقد وصفه سبحانه بالخليفة وميزه عن غيره من المخلوقات بهذه الغاية المنوطة به، لذلك فهو يكون إنسانا بقدر اقترابه من أداء هذه الغاية على أكمل وجه ويتجرد عن إنسانيته كلما ابتعد عما كلفه الله به، ويصل إلى مرتبة الإنسان الكامل بقدر اقتدائه بسيدنا رسول الله ﷺ الذي فضله الله على العالمين وجعله سيد ولد آدم أجمعين.

ثم لنعلم أنّ الإنسان الكامل «هو الذي يستحق الأسماء الذاتية، والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم مقتضى الذاتى...، فهو مظهر تجلي أسماء الله وصفاته، وهذا معنى قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" (الأحزاب: 72)، يعني أنه ظلم نفسه بأن أنزلها عن تلك الدرجة، جهولا بمقداره لأنه محل الأمانة الإلهية وهو لا يدري».²⁵

فحقيقة الإنسان أوسع من كونه كائنا حيا، ذا لحم وعظم ودم وعقل يتميز به عن غيره ويصرف إرادته كيف يشاء، بل هو ذو قيمة أوسع وأشمل وأبلغ مما تضعه فيه نفسه وهواه، إنه مكنن الأسرار الإلهية ومظهر تجليات الربوبية فهو المختار من الله سبحانه وتعالى ليخلفه في أرضه ويتصرف فيها وفق أمره، ويظهر فيها قدرة خالقه، وحكمته، وعلمه، وعدله،... الخ، مستصحبنا في ذلك ملكاته الجسمية والنفسية والعقلية والروحية التي ميزه بها،

²⁴ بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم صالح، ص 81.

²⁵ عبد الكريم الجيلي، الانسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، تج: صلاح بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط 1/ 1997 م، ص 212.

ومسترشدا بوحى الله إليه عبر رسله، وشعاره في ذلك قوله تعالى: " قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الأنعام: 162).

2.3 الغاية من خلق الانسان:

من خلال استقراء العلماء للآيات القرآنية وجدوا أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان لغاية بيّنة، وكلفه بمهمة وجودية واضحة، تُحقّق مقصوده عزّ وجل من خلقه، وهي الخلافة في أرضه وإقامة قوانينه بين مخلوقاته، فقال في محكم تنزيله: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56)، أي أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه، هي معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته²⁶، ونقصد بذلك المفهوم الشامل للعبادة أي مراعاة حق الله سبحانه وتعالى مع كل ما ومن حوله ويتصرف في أموره كلها وفق ما يرضي الله ويتجنب ما يغضبه.

وهذا ما يقودنا إلى بسط مفهوم الخلافة وعلاقتها بالغاية الوجودية للإنسان في العنوان الآتي.

4. الخلافة وعلاقتها بتحقيق الغاية الوجودية للإنسان.

1.4 مفهوم الخلافة:

إن الخلافة هي الصّفة التي منحها الله سبحانه وتعالى لسيدنا وأبينا آدم عليه السلام وذلك بقوله للملائكة "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة: 30)، والخلافة في اللغة هي لمن يخلف غيره في الأمور،²⁷ وهناك من قال أن المقصود بالخليفة هو عين آدم عليه السلام لا أبناؤه، وهناك من رأى أنها تشمل آدم وبنيه معا²⁸، ونحن نميل للرأي الأخير لأن ما يؤيده من الآيات كثير، فنجد مثلا في قوله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء: 70)، تعميم على آدم وبنيه وفي قوله أيضا: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ..." (الأعراف: 11)، أنها جاءت بضمير المخاطب الجمعي إلى آخره من الآيات التي تؤيد أنّ الخلافة خصيصة للبشرية جمعاء.

²⁶ بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، تطبيق رسائل النور، ص 129.

²⁷ لسان العرب، 83/9

²⁸ أنظر البهي خولي، آدم عليه السلام، ص 121، 122.

أما فيما يخص الخلافة عمن؟ فقد اختلفت وجهات نظر العلماء فيها أيضا إلا أنه ما استقر عليه رأي المحققين منهم أنّها استخلاف عن الله في إعمار الأرض تشريفا من المستخلف للمستخلف، وهذا ما يؤيده تعريف الراغب الأصفهاني للخلافة في قوله: «والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبه المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أوليائه في الأرض قال تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ" (سورة فاطر/39)».²⁹

بناء على ما سبق يمكننا القول أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وشرفه باستخلافه له في أرضه لتنفيذ مراده فيها، وإجراء أحكامه عليها، وتحقيق المهمة التي كلفه بها ائتمارا بما أمره به وانتهاء عما نهاه عنه.

2.4 مؤهلات الخلافة:

من خلال ما تقدّم يمكننا القول إن الإنسان مستخلف على خيرات الأرض وثرواتها ومخلوقاتهما من جماد ونبات وحيوان ليصير بذلك حاكما ومتصرفا في ملك المستخلف وفق شرطه (أي المستخلف) لا وفق هواه، لذلك شرع الله سبحانه وتعالى القوانين التي ينبغي عليه الالتزام بها وبين عقوبة خرقها، كما حدد المنهج والوسائل التي تُيسّر عليه أداء مهمته الوجودية على أكمل وجه، وليمكن الإنسان من تحقيق ذلك لا بد له من مؤهلات خاصة تميزه عن باقي المخلوقات جعلته أهلا للخلافة، وهذا ما سنعرضه في العنوان الآتي:

2.4.أ. أهلية التكوين: يتكون الإنسان من عنصر مادي يشترك فيه مع بقية المخلوقات، وعنصر روعي تميّز به عن غيره، وهو تشريف من الله سبحانه وتعالى إذ نفخ فيه من روحه وجعله بذلك مستأهلا لسجود الملائكة له، سجود تكريم وحفاوة لا سجود عبادة، فقال في محكم تنزيله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ" (الحجر: 29-31)، وقد جاء في تفسير ابن عجيبة لقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ..." إلى آخر الآية: «اعلم أن الروح القائمة بهذا الأدمي هي قطعة من الروح الأعظم،... فلما أراد الحق تعالى أن يستخلف هذه الروح في هذه البشرية لتُدبّرهما وتُصرفهما فيما أريد منها، قالت الملائكة بلسان حالها: كيف

²⁹ أبو القاسم الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان الداودي، دار القلم، دمشق- سوريا، ط1، ص 294.

تجعل فيها من يفسد فيها بالميل إلى الحظوظ والشهوات، ويسفك الدماء بالغضب والحميات، ونحن نسبحك ونزّهك عمّا لا يليق بك؟ رأت الملائكة ما يصدر من بعض الأرواح من الميل إلى الحضيض الأسفل، ولم تر ما يصدر من بعضها من التصفية والترقية، فقال لهم الحق تعالى: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَإِنْ مِنْهَا مَنْ تَعَرَّجَ إِلَى عَرْشِ الْحَضْرَةِ، وَتَعْبَدَنِي بِالْفِكْرَةِ وَالنَّظَرَةِ، وَتَسْتَوِي عَلَى الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ، وَتَنْكَشِفُ لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ أَسْرَارُ الذَّاتِ وَأَنْوَارُ الصِّفَاتِ وَأَسْمَاءُ الْمُسَمِّيَّاتِ»³⁰، فهذا دليل على أن للروح خصيصة لم يحظ بها أحد من المخلوقات من قبل، إلى أن خلق الله الإنسان وشرفه بها ما يجعلنا ندرك أن قيمة الإنسان عند الله سبحانه وتعالى لا تضاهيها قيمة، ومكانته لا تدانها مكانة.

فالملاحظ أن هذا التجانس بين الجزء الروحي والمادي هو ما جعل للإنسان قيمة أعلى من بقية المخلوقات وأهله ليكون أحق بخلافة الأرض من غيره.

2.4.ب. أهلية التكليف: ليس هذا الإنشاء والتركيب الإلهي للإنسان إلا الحقيقة الأولى من حقائق الخلافة، أما الحقيقة الثانية فهي أمانة التكليف التي أشفقت السماوات والأرض من حملها وحملها الإنسان لجهله فقال تعالى في محكم تنزيله: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" (سورة الأحزاب/ الآية 72)، «والأمانة هنا هي التوحيد في الباطن، والقيام بوظائف الدين في الظاهر، من الأوامر والنواهي، فالإيمان أمانة الباطن، والشرعية بأنواعها كلها أمانة الظاهر»³¹.

وهذا ما يطلق عليه علماء الشريعة التكليف، ويعرف في أصول الفقه بالحكم التكليفي الذي عرّفوه بأنه خطاب الله تعالى المتعلّق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخيرا أو وضعاً³² وقد جاء في بيان الشاطبي لقصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة مسائل عدة، أولها أن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً³³.

³⁰ «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (1/ 95):

³¹ «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (4/ 468)

³² وهبة الزحيلي، الوجيز في أصول الفقه، ص 287.

³³ الشاطبي، الموافقات، 2/ 289.

والتكليف أيضا هو مخاطبة الإنسان بمضمون الخلافة، وتمكينه من الاختيار بين أن يفي بما كُلف به، وبين أن يخلّ بالتزامه، على أساس من حرية الإرادة في الاختيار بين الإيفاء والإخلال بعد التّبصر بعواقب كل من الطّريقين، ولا يفوتنا التّنبية أنّ الإنسان يحقّق مصالحه بقدر اقترابه من تحقيق قصد الشّارع في تكليفه ولا عكس، فليس تحقيقه للمصالح يفيد تحقيقه لمقاصد الشّارع، لذلك وضع العلماء قواعد وضوابط حدّدوا بها معنى المقاصد والمصالح الشرعية وجعلوا العلاقة بينهما غير قابلة للانفكاك.³⁴

3.4. مضامين الغاية الوجودية للإنسان:

ليباشر الإنسان إعمار الأرض وفق مراد الله فيها، سخر له سبحانه وتعالى المخلوقات ليستجلب منها ما يساعده على تحقيق وظيفته وفق شروط خالقه دون إفراط أو تفريط، بل وفق منهج ربّاني سليم يحقق الإنسان باتّباعه سعادته في الدّارين، وقد بيّن لنا الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي-رحمه الله-حكمة هذا التّسخير، حين حددها في وظائف ثلاث كبرى أولها: «تنظيم جميع أنواع النعم المبتوثة في الكائنات بالإنسان وربطها بأواصر المنافع التي تخص الإنسان»³⁵، وهذا ليتيسر للإنسان الخليفة أداء مهمته الوجودية وفق مراد خالقه من خلال استجلاب ما ينفعه من الكائنات ودفع ما يضرّه ويضرها كذلك، لأهمية العلاقة بينهما.

أما الوظيفة الثانية: فهي تتعلق بما «أودعه الله سبحانه وتعالى في الإنسان من خصائص جامعة أمله ليكون موضع خطابه سبحانه وتعالى، ومقدرا لبدائع صنائعه ومعجبا بها»، فيكون بذلك ملزما بشكر مولاه والثناء عليه، تعظيما وتقديرا له، معترفا في ذلك «بقوة الله المطلقة وقدرته التي يقابلها اعتراف بضعفه البشري وعجزه عن القيام بأي شيء دون مدد وعون من الله سبحانه وتعالى، عاملا بقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " (فاطر: 15)، أي يا أيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ في دقائق الأمور وجليلها، في كل لحظة لا يستغني أحد عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك إذ لا قيام للعبد إلا به، فهو مفتقر إلى الله، إيجاباً وإمداداً».³⁶

³⁴ ولبحث تفصيل ذلك يمكن الرجوع إلى كتاب ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية محمد سعيد رمضان البوطي -رحمه الله-.

³⁵ بديع الزمان سعيد النورسي، اللغات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، تطبيق رسائل النور، ص 540، وما بعدها بتصرف.

³⁶ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 4/ 569

والوظيفة الأخيرة: هي «قيام الإنسان في حياته بمهمة مرآة عاكسة لشؤون "الحي القيوم" ولصفاته الجليلة المحيطة»، ذلك أنه زُوِّدَ بصفات محدودة تشبه صفات الله المطلقة، كالرحمة والرأفة بالمخلوقات والعطف عليهم.. الخ، فكانت هذه الصفات كاشفة لجزء من ماهية صفات الله عز وجل فرحمتنا بالمخلوقات تبين سعة رحمة الخالق وقدرتنا على البناء والتشييد تحرك وجداننا بالتأمل في قدرة الخالق عز وجل وهكذا...، حيث يدرك الانسان بما له «من إرادة جزئية وعلم قليل وقدر ضئيل وتملك في ظاهر الحال وقابلية على إعمار بيته بنفسه، يجعله يدرك بهذه الصفات الجزئية خالق الكون العظيم ويفهم مدى مالكيته الواسعة وعظيم إتيقانه وسعة إرادته وهيمنة قدرته وإحاطة علمه فيدرك أن كلما من تلك الصفات إنما هي صفات مطلقة وعظيمة لاحد لها ولانهاية».³⁷

فالله سبحانه وتعالى كلف الإنسان، بأن ينهض بعمارة الأرض التي أحياها الله عليها على النحو الذي بينه وشرعه له، طبقا لقوله عز وجل: "... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..." (هود: 61). أي أن «الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان، وكون الإنسان قادرا عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع»³⁸، فالإنسان بما رزقه الله من ملكات وصفات وقابلية للتصرف مؤهل لاستغلال منافع الأرض ودفع مساوئها عليه وعلى غيره من المخلوقات، واتباعه في ذلك للنهج الذي شرعه الله تعالى يحقق أمرين اثنين؛ أحدهما: ممارسة العبودية لله بسلوكه الاختياري كما قد خلق عبدا له بواقعه الاضطراري. ثانيهما: تعمير الأرض عمرانا ماديا وحضاريا على الوجه السليم الذي يسعد الناس مجتمعا وأفرادا، ويمدّ فيما بينهم جسور الودّ، وينشر فوقهم مظلة العدالة والأمن، يضاف إلى هذا كلّهُ أنّ الله الذي أقام الإنسان على هذه الغاية، التي ما أقامه عليها إلا لخيره وإسعاده، ضامن له في مقابل ذلك مقومات عيشه وأسباب رغبته، وأدار الكون الذي من حوله لخدمته ورعايته.³⁹

وقد جاء في الحكم العطائية لسيدنا ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله- قوله: «اشتغالك بما ضمن لك وانشغالك عما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك»⁴⁰

³⁷ اللّمعات، مرجع سابق، ص 541.

³⁸ الرازي، مفاتيح الغيب، 368/18.

³⁹ شرح الحكم العطائية الجزء الاول صفحته 95 للشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله

⁴⁰ المرجع نفسه، ص 95.

وليس لعقل أن يشتغل بما ضُمن له، وينشغل عما هو مطالب به، فالله سبحانه ضمن الرزق لجميع مخلوقاته، وكلفنا في المقابل بأداء مهمة وجودية تعود علينا وعلى غيرنا بالخير والجزاء إن أحسنا أداها، أو بالشر والعقاب إن حدنا عن مقصدها، فهي الغاية التي خلقنا لأجلها وهي التي تحدد ماهيتنا، إنها وظيفتنا الجودية.

4.4. علاقة الخلافة بالغاية الوجودية للإنسان:

إنَّ المهمة التي كلف الله بها الإنسان وجعلها غاية لوجوده تنبني على عنصر أساسي هو معنى الخلافة عن الله، منه تستمد جوهر حقيقتها وكل أبعادها، فالخلافة تقتضي أن يكون الهمُّ الأكبر للخليفة ترقّيه نحو مستخلفه واقترابه منه، ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل⁴¹، قال تعالى: "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" (الأعراف: 10)، أي «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِالْبَنَاءِ وَالسَّكَنِ، وبالعرس والحرث والزرع، وغير ذلك من أنواع التصرفات، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ: أسبابًا تعيشون بها كالتجارة وسائر الحرف، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ على هذه النعم، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان، فأنتم جديرون بسلبها عنكم، وإبدالها بالنقم، لولا فضله ورحمته»⁴².

والمأمل في الآية الكريمة يجد أن الله سبحانه وتعالى يذكّر عباده بنعمة التّمكن في الأرض وقيمتها، كما يشير إلى من هم أولى بها فهي متحققة في أهل التجريد، المنقطعين إلى الله تعالى، الزاهدين في الدّنيا، المتعلقين بالآخرة والطامعين إلى نيل رضوان الله سبحانه وتعالى والفوز بجنانه، لذلك كان الإنسان الخليفة مطالب بالاجتهاد في طاعة الله والسعي إلى الاقتراب من مستخلفه وإرضائه عنه، من خلال التّشبّث بالإيمان واليقين في الله والعمل الدؤوب لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ ما استطاع من الكمال الإنساني الذي بلغه سيّدنا رسول الله ﷺ، وفي الوقت نفسه عليه الجد والكّد في إعمار الأرض والسعي لبناء حضارة إنسانية يتحقق فيها مقصود المستخلف سبحانه وتعالى من المستخلف.

⁴¹ خلافة الإنسان بين العقل والوحي، عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط3، 2000م، ص62.

⁴² «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (2/ 200)

وليتمكن الإنسان من أداء هذه الغاية، لا بد له من تصور صحيح ورؤية سليمة يبني عليها تصرفاته في الواقع ويتحرك وفقها في شعاب الحياة، وهذا يعني أن الرؤى متعددة ومنها السليم ومنها السيئ ومنها ما يجانب الصواب ويفارقه، وأصلحها وأسلمها وأصلحها للإنسان ما كان مبنيا على التوحيد، أي ما كان رؤية كونية توحيدية مصدرها الوحي الإلهي، وسنعرج إلى بيانها في العنوان الآتي إن شاء الله.

5. الرؤية الكونية التوحيدية وفقه الغاية الوجودية للإنسان:

1.5. مفهوم الرؤية الكونية التوحيدية:

نقصد بالرؤية الكونية التوحيدية أنها رؤية قائمة على التوحيد، تدرك أن الكون قد أبدع بإرادة حكيمة واحدة، وأنّ نظام الوجود مشيد على أساس الخير والجد والانتفاع بما هو موجود، ومبني على الرحمة وإيصال الموجودات إلى كمالاتها اللاتئة بها، وتدرك أيضا أن للكون قطبا واحدا ومحورا واحدا، ماهيته (الكون) من الله "إنا لله" وإليه تتجه "إنا إليه راجعون".⁴³

ومن مميزات هذه الرؤية التوحيدية أنها مؤيدة بقوة المنطق، والعلم، والاستدلال، وتعطي للحياة معنى وهدفاً وروحاً، لأنها تضع الإنسان في طريق الكمال فهو دائما يتقدم ولا يقف أبدا عند أي حدّ معين فهو بقدر استناده إلى التوحيد بقدر استمداده منه، بما يُحصل له أداء الغاية الوجودية على أكمل وجه،⁴⁴ إن هذه الرؤية تجعل التوحيد الذي هو جوهرها وعليه مدارها مبدأ للمعرفة، و للتاريخ، وللغيب، والأخلاق،... الخ، فهي في نهاية المطاف رؤية مفادها أن الإنسان المتشرب للتوحيد ومعانيه يعلم شموليته لجميع مجالات الحياة، فيستقرّ في ذهنه أنّ مصدرها واحد، والعلاقة بينهما واحدة، وغايتها واحدة، وهي خدمة الإنسانية، وبالتالي يتيسر له فهمها وحسن التصرف معها، وبقدر طاعته لمولاه واتباعه له، بقدر ما يحصل له من الإنسانية التي شرفه الله بها.

⁴³ المرجع السابق، ص 17 بتصرف.

⁴⁴ المرجع نفسه، ص 20 بتصرف.

2.5. النظرة الصوفية للرؤية الكونية التوحيدية:

إن المنهج الصوفي رؤيته للحياة رؤية توحيدية، تقوم على الجمع بين قراءتين (قراءة الوحي المسطور والوحي المنظور)، أي تقوم على أنّ الله واحد وكل ما هو مخلوق في الكون مخلوق من طرف خالق واحد، وبالتالي فإنّ العلاقة بين المخلوقات هي علاقة متناسقة متكاملة مع بعضها البعض، مصدرها واحد، وهدفها واحد، والمخوّل بالتصرف فيها واحد، فالمصدر هو الله، والهدف تحقيق سعادة الإنسان في الدارين، والمأذون له بالتصرّف واحد وهو الإنسان، ولتتحقّق عملية الجمع بين القراءتين، لابد من إبراز علاقه الله (الغيب) بالإنسان والطبيعة، وتخليص المعرفة ومناهجها من تجاهل الغيب، أو الإلحاد فيه، أو نفيه، أو الوقوف منه موقف الحياد والتخلص من حالة الفصام بين اللاهوت والناسوت، وسائر الفلسفات الوضعية ذات القراءات الأحادية،⁴⁵ وهذه مهمة لا يمكن لأي كان القيام بها إلا من أنعم الله عليه بتذوق حلاوة الإيمان، وشهد تجلّي أسماء الله الحسنى على مخلوقاته، وجبل قلبه على ذكر الله وتذكّره مع كل ما ومن حوله من المخلوقات، فانتقل من التدبر والتّفكر، إلى الفعل والعمل، وبذلك استطاع تأدية وظيفته الوجودية على أكمل وجه بإذن الله، وهذا ما يميز المؤمنين عامة وأهل التّصوف منهم خاصة، فهم الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة.

6. مصادر الإسترشاد عند الصوفية

1.6. الوحي أساس الإرشاد:

اقتبس رجال التصوف والسلوك أصولهم في السير إلى الله والتربية والتهذيب من الآيات الكثيرة الدالة على ذلك في القرآن الكريم، منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: "فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" (الذاريات: 50)، أي ففروا إلى الله بالإيمان والطاعة، كي تتجنّبوا غضبه، وتفوزوا بثوابه، أو: ففروا من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، أو: من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن.⁴⁶

⁴⁵ طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي (مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر)، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، 2001، ص115-116 بتصرف.

⁴⁶ تفسير ابن عجيبة الحسني، 5/480.

فهذه الآية الكريمة وغيرها كثير تحت المؤمن على دوام اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، وبذل الوسع في التقرب منه بإتيان أوامره واجتناب نواهيه، وهي ما اتخذها الصوفية شعاراً لهم في سيرهم إلى الله، وتذكير أنفسهم من غفلة البعد عنه. ونجد ما يؤيد هذه الآية من السنة النبوية في الحديث القدسي الذي يقول فيه الحق سبحانه: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ".⁴⁷ والوليُّ هو الذي يتولَّى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، فعليه القيام بحقوق الله استقصاء واستيفاء، ودوام حفظ الله إياه في السراء والضراء.⁴⁸

فمن عادى وليَّ الله، فقد أعلن الله سبحانه الحرب عليه، وهذا فيه الغاية القصوى من التهديد؛ إذ مَنْ حَارَبَهُ اللهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الْمُحَارِبِ، فَهُوَ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ. وَمَنْ يُطِيقُ حَرْبَ اللهِ؟!

وتقرب الصوفية إلى الله بالنوافل وتشديدهم عليها غرضه القرب من الله سبحانه وتعالى، ونيل محبته، وإذا أحبَّه الله سَدَّده في سمعه، فلا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يُرْضِي الله، وسَدَّده في بصره، فلا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى مَا يَجِبُ اللهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، ولا يَنْظُرُ إِلَى الْمَحْرَمِ، وسَدَّده في يده، فلا يَعْمَلُ بِيَدِهِ إِلَّا مَا يُرْضِي الله؛ وكذلك رِجْلُهُ، فلا يَمْشِي إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِي الله.

أما زهدهم وحثم عليه فنجد في قوله تعالى: "اغْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ..." (الحديد: 20).

⁴⁷ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب النواضع، حديث رقم 6502، ج 8، ص 105.

⁴⁸ الرسالة القشيرية، ص 380.

وقال تعالى: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (المنافقون: 9). فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية دعا إلى الزهد، وحذر من متاع الحياة وإغراءاتها، وأكد على زوالها وفنائها، وليس باق منها إلا ما كان لله.

فالزهد هو خلو القلب من التعلق بغير الرب، أو برودة الدنيا من القلب، وعزوف النفس عنها، وزهد العامة هو ترك ما فضل عن الحاجة في كل شيء، وزهد الخاصة ترك ما يشغل عن التَّقرب إلى الله في كل حال.⁴⁹

وقد كان نبينا ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأقلهم رغبة فيها، مكتفياً منها بالبلاغ، راضياً فيها بحياة التقشف، ممتثلاً قول ربه عز وجل: "وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى" (سورة طه/ الآية 131)، مع أن الدنيا كانت بين يديه، ومع أنه أكرم الخلق على الله، ولو شاء لأجرى له الجبال ذهباً وفضة.

فمن هذه النماذج وغيرها كثير في حياة سيدنا رسول الله ﷺ، اتخذ الصوفية الزهد شعاراً لهم وعلامة على تعلقهم بالله وبالأخرة واقتدائهم بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما مقامات الصوفية كالنوبة، والشكر، والرضا، والتوكل، والصبر... الخ، فهي كذلك مقتبسة من القرآن الكريم والهدي النبوي كذلك، فنجد اقتباسهم للنوبة مبني على كثير من الآيات منها قوله تعالى: "...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (النور: 31). وفي السنة نجد قوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم عن أبي هريرة ؓ قال: «سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».⁵⁰ رواه البخاري.

⁴⁹ معراج التشوف لحقائق التصوف، ص 30.

⁵⁰ أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم الليلة (8/ 67) برقم (6307).

ومقام الشكر مستمد من قوله تعالى: " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ... " (إبراهيم: 7)، ويقابله في السَّنة النَّبوية حديث أَمَّا عائشة-رضي الله عنها-: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لَمْ تَصْنَعْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدُمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ؟ قَالَ: أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا».⁵¹

إن المتأمل في هذه المقامات وغيرها يجدها لا تقتصر على الحالات الروحية أو الانفعالات العابرة فقط، بل تحمل معها وسائل تربوية عملية تهدف إلى تربية النفس وضبط سلوكها. فمقام التوبة يربي المريد على الاعتراف بالخطأ ومحاسبة النفس والانقطاع عن المعاصي، ويحفزه على المثابرة في الاستغفار وتنمية التواضع أمام الله، ومقام الشكر يعلمه تقدير نعم الله وتحويل الامتنان إلى طاعات عملية مستمرة، ويغرس داخله الرضا الداخلي والبعد عن التذمر، أما مقام الرضا فيربي النفس على قبول القضاء والقدر بضبط الانفعالات، ويحقق التوازن النفسي والاطمئنان الداخلي، بينما التوكل يعزز الثقة بالله ويربط الجهد والعمل بالنية الصالحة، ويحقق الطمأنينة ويقلل القلق من المستقبل، ويعلم الصبر المريد تحمل الابتلاءات والمحن بثبات، والالتزام بالحق رغم الشهوات، وتنمية قوة الإرادة وضبط السلوك. إلى جانب ذلك، تُعد وسائل عامة مثل الذكر والمراقبة والمحبة أساسية لكل المقامات، إذ تحيي القلب وتزيد الوعي بحضور الله، وترسخ محاسبة النفس على الأقوال والأفعال، وتقوي الالتزام بالحق والبعد عن الباطل، وكل هذه الوسائل مجتمعة تهدف إلى بناء شخصية متوازنة ومستقيمة، متجذرة في الطاعة والعفة والصدق والعمل الصالح، بحيث تصبح سلوكياتها الطبيعية انعكاساً للروحانية المتصلة بالله لا مجرد حالات وجدانية عابرة.

من خلال ما تقدم، وبالرجوع لأصول هذه المقامات نخلص إلى حرص الصوفية على الرجوع إلى الكتاب والسنة، والاستناد إليهما كمصدر لما أداروه بينهم من مصطلحات، وما بنوه عليها من علوم، وما رسموه من سلوك ورياضات، وفي ذلك بيان لمشروعية منهجهم، وجواب منهم لمن طعن فيهم من العلماء، الذين وصفوهم بأنهم أهل بدعة، وأنهم أتوا بما لم يكن موجوداً في عهد الرسول ﷺ، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ونؤيد ذلك بقول

⁵¹ صحيح مسلم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم 2820، ج 4/ص 2171.

مشايخ التصوف وعلمائهم عن أصالة هذا العلم وارتباطه بالوحي، فقد قال الجنيد- رحمه الله-: " الطَّرْقُ كُلُّهَا مسدودة عن الخلق، إلّا من اقتفى أثر الرسول ﷺ"، وقال أيضا: " علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة".

وقال الامام سهل التستري -رحمه الله-: «أصولنا ستة: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق».

ونختم بكلام ابن عطاء الله السكندري-رحمه الله- قال: «من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله»⁵²، فهذا جزء يسير من أقوال أساطين هذا العلم، أوردناه للتأكيد على أصالة التصوف كما أراده شيوخه ومؤسسه، دون أن نغفل الإشارة إلى وجود المشغبين فيه الذين ليسوا أهلا له.

2.6. المربي وسيلة الإرشاد

إن من سنن الله في خلقه أن جعل لكل علم معلما، ولكل فن خبيرا، ولذلك قال سيدنا محمد بن الصديق الغماري: «فلا يخفى على ذوي البصائر والعقول أن الفنون كلها لا بد لها من واسطة، ومن لا واسطة له في فنه، لا بركة له فيه...»⁵³، وقد جاء الأمر الالهي باتخاذ القدوة الصالحة فقال تعالى في محكم تنزيله: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب: 21). ولا تكون القدوة حسنة إلا إذا كان الله غايتها، لأن الأخذ من القدوة الصالحة أو الشيخ المربي فيه الأجر، وفيه الوصول معا، وفيه سر الامداد بالبركة وربط المريـد بالسر المحمدي، وقد تلقى الرسول ﷺ الوحي عن جبريل عليه السلام، ولو شاء الله لنقله إليه بدون واسطة. ولكن ليعلمنا قيمة الأخذ والتلقي عن الواسطة، وهو ما نهجه علماء الإسلام كافة في تلقي علومهم إلا القليل منهم من كان له تكوين عصامي، فوجود الشيخ المربي الذي سمت روحه إلى درجة الإحسان، وعولجت نفسه في معارج الكمال، وارتقى سره إلى درجة القرب من الله عز وجل، ضرورة حتمية في المنهج السلوكي والتربوي لتزكية النفوس وتطهيرها من عيوبها، وتخليصها من أمراضها، والرقى بها

⁵² محمد خير فاطمة، حقائق التصوف المعتدل، دار العصماء، دمشق، سوريا، ط1، 2019، ص27-28.

⁵³ نقلا عن مجلة الأنوار المحمدية التي تصدرها الزاوية البلقايدية الهبرية، العدد 24، 2020، ص 51.

إلى حضرة الله عز وجل بإذن الله، ذلك أن الشيخ المربي هو وارث مجدي، أي تناقل العلم من سيدنا رسول الله ﷺ ماجدا عن ماجد حتى وصل إليه، فكانت له مكانة وقيمة بفضل ما ورثه من القدوة المحمدية الكاملة، ويستقى ذلك من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «...وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»⁵⁴، والمريد في بداية سيره يكون مكبلاً بالشهوات، مثقلاً بالمعاصي لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية إلا إذا اقتدى بولي صالح يهديه إلى سواء السبيل، ويجنبه عن طرق الضلال، لأن النقص غالب على أكثر الخلق، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب من الغلط، فلا بد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل الكامل فحينئذ يصل إلى مدارج السعادة، ومعارج الكمالات⁵⁵.

وقد حدد العلماء شروطاً لا بد من توفرها فيمن تقدم للمشيخة ملخصها في قول الشيخ السيد محمد أبو الهدى -رحمه الله تعالى- في كتابه العقد النضيد في آداب الشيخ والمريد: «وينبغي أن يتصف الشيخ المسلم اثنتي عشرة صفة صفتان من حضرة الله تعالى وهم الحلم والستر، وصفتان من حضرة النبي ﷺ وهم الرأفة والرحمة، وصفتان من حضرة الصديق الأكبر ﷺ وهما الصدق والتّصديق، وصفتان من حضرة الفاروق الأعظم ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصفتان من حضرة سيدنا عثمان بن عفان ذي النورين ﷺ وهما الحياء والتّسليم، وصفتان من حضرة سيدنا علي الكرّار ﷺ وهما الزهد الأتمّ والشجاعة. ومتى اتصف الشيخ بهذه الأوصاف وتمكّنت قدمه وزكت شيمه، صحّ أن يكون قدوة في الطريق»⁵⁶.

فهذه الصفات ما يؤكدها من أساطين هذا العلم الكثير، فكلمهم يتفقون على ضرورة وجود شيخ متحقق بمكارم الأخلاق، وعالم بعلوم الشّرع، ومجاهد في التّغلب على هواه، وحريص على الاقتداء بسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وصحابته الكرام، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، فمن توافرت فيه وهذه

⁵⁴ سنن ابن ماجه، 17 باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، 81/1، رقم الحديث 223.

⁵⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ، 164/1.

⁵⁶ مجلة الأنوار المحمدية التي تصدرها الزاوية البلقايدية الهبرية، العدد 24، 2020، ص 51.

الصفات وشهد له أهل زمانه بذلك، حُقَّ له أن يتقدّم للمشيخة وهي في نهاية المطاف مكرمة يكرم الله بها عباده الأتقياء الأصفياء، وبعد علمنا بضرورة اتخاذ الشيخ المربي في طريق السلوك، ومواصفاته، يحسن بنا الانتقال إلى العنوان الآتي.

7. تزكية النفس عند الصوفية وعلاقتها بالغاية الوجودية

1.7. مفهوم التزكية:

إن تزكية النفس من مهمات الرّسل، وهي هدف للمتّقين، وعليها مدار النّجاة والهلاك عند الله عزّ وجل، والتزكية في اللغة تأت على معان: منها التّطهير، والنّمو، وهي كذلك في الاصطلاح، فزكاة النفس تطهيرها من أمراض وآفات، وتحقيقها بمقامات، وتخلّقها بأسماء وصفات، فهي في النّهاية: تطهّر وتحقّق وتخلّق⁵⁷، وتظهر آثارها على سلوك الفرد في تعامله مع الحق أولاً ثم مع الخلق ثانياً، وقد حث القرآن الكريم في آيات كثيرة منه على تزكية النفس وتأديبها وتطهيرها، ومدح من زكاها بالطّاعات والعمل الصالح وذم من دنّسها بالمعاصي وسوء العمل، منها قوله تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)" (الشمس: 7-10).

وقد أورد ابن عجيبة في تفسيره أن المراد (بفجورها) هو حركتها في طلب الرزق، «وتقواها: سكونها لحُكْم التقدير، ويُقال: أفلح لمن طهرها من الذنوب والعيوب، ثم عن الأطماع في الأعواض، ثم أبعد نفسه عن الاعتراض على الأنام، وعن ارتكاب الحرام، وقد خاب من خان نفسه وأهملها عن المراجعة، ودسّسها بالمخالفات»⁵⁸.

ويسمى أهل التصوف بأهل السلوك والتزكية كذلك، لاهتمامهم بتأديب النفس ومجاهدتها وكشف عيوبها، وإماتة أنانيتها بالرياضات وإحياء إرادتها في سبيل الله بالطاعات، فإذا أدّى ذلك على كماله وتمامه، تتحقّق في القلب حينئذ معان تكون بها النفس مزكّاة، ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلّها، وتحسن النفس تأدية حقوق الله عليها، من عبادة، وطاعة، وذكر، وعمل، وإعمار للأرض بما يرضيه عزّ وجل، ومع النّاس كل على حسب مقامه، وعلى ضوء التّكليف الرّباني، لذلك سنعرض بعض وسائل التزكية؛ التي اهتم

⁵⁷ سعيد حوى، تزكية الأنفس،

⁵⁸ ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 310/7.

بها الصوفية وحثوا عليها، لما لها من فضل وأثر على السلوك، الذي يتجلى على الفرد في تأديته لوظيفته الوجودية.

2.7. بعض وسائل التزكية وعلاقتها بتفعيل حركية الإنسان

2.7.أ. الذّكر: إن عماد الطريقة وجوهر الحقيقة هو ذكر الله سبحانه وتعالى بأنواعه كلّها، ذلك أن فضل ذكر الله أشهر من أن يذكر، وأكبر من أن يحصر، وهو بعد التوبة من أعظم أركان الطّريق وأهمها، لأنّ المقصود من الذكر تخليص القلب من التعلّق بما سوى الله تعالى، وهو أعظم ما في ذلك لأن كثرتّه توجب استيلاء محبة المذكور على القلب بحيث لا يبق معها محبة السّوى، وجميع الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة تنشأ عنها ولكونه عمدة في الوصول إلى الله عز وجل وقع الحث عليه في القرآن المجيد والسّنة المطهّرة، وتناوله أكثر الأئمة على أنّه من أعظم القُرَبات، قال تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ" (البقرة: 152)، أي استحضروا جلالي وعظمتي في قلوبكم بالألطف والإحسان، قال تعالى: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (آل عمران: 191)، أي داوموا على الذّكر في جميع الأحوال.⁵⁹

ومن خاصية تمكّن الذّكر من القلب أن يهذّب أخلاق صاحبه، فمن لم يتهذّب فكأنّه لم يذكر، فهذا مقصود الشّارع والمشايع بأمرهم المريد بإكثار الذّكر والله عليم حكيم⁶⁰، فمن حقّ مقصود الذّكر تحقق بذلك من مجالسة الحقّ سبحانه وتعالى، وبذلك يتجلى له مقصود الشّارع من خلقه وحقيقته وحقيقة وظيفته الوجودية التي كُلف بها، وأهميتها فيستمد من الله العون والمدد الذي يستعين به في تسيير شؤون حياته.

2.7.ب. التواضع: هو النّأي بالنّفس عن العجب والكبر، فهما مرضان نفسيان خطيران، والمتكبر المختال الذي يزهو بنفسه وما يخصّه، يكون منبوذا لا يحبه أحد،⁶¹ وقد سأل الجنيد -رحمه الله- عن التواضع فقال: هو خفض الجناح، وكسر الجانب. وقال آخر

⁵⁹ عبد السلام بلقاند، محسن الحارث، شمس العارفين في تقلّب السّاجدين، ص 147، طبعة الزاوية البلقاندية الهبرية.

⁶⁰ سيدي المرصفي-قدّس الله سرّه- نقلا عن كتاب شمس العارفين في تقلّب السّاجدين، ص 152.

⁶¹ أسعد السحمراني، موسوعة التصوف، ص 64-65.

هو الافتخار بالقلة، والاعتناق للذلة، وتحمل أثقال أهل الملة⁶²، فخلق التواضع يجعل العبد دائم اللوم لنفسه لا يرى لها إنجازا ولا تحصيلًا إلا بتوفيق وتسديد من الله عز وجل، لترسخ عنده قناعة أنما وصل إليه في العبادة أو العمل لم يكن يعلم منه أو معرفة بل الفضل فيه لله، ويكون ذلك حافزا على مداومة البذل والعطاء والاجتهاد، ومن يطبع التواضع على نفسه وقلبه يصير خادما للخلق بكل أصنافهم حريصا على تقديم ما ينفعهم، مساعدا ومحبا لهم، راحما لصغيرهم وموقرا لكبيرهم، فتتحقق بذلك مساهمته في بناء المجتمع، كل حسب منصبه وزمانه ومكانه، وينال بذلك رضى الحق والخلق، ولطالما كانت الخدمة والتواضع وسيلتان من وسائل تزكية النفس وهما علامتان على أن النفس مزكاة، لذلك ندبنا الله ورسوله ﷺ إليهما: "ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته" [متفق عليه]، وقال تعالى: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ" (سورة الحجر/ الآية 88).

أما المتكبر الذي يظن نفسه وصل عند أبسط إنجاز، يكون بذلك قد جنى على نفسه بحرمانها من فضل الله ومنه عليه، وحاجبا بينه وبين الحق سبحانه وتعالى ومستجلبا لعذابه وسخطه لأنه نازعه في ملكه، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "قال رسول الله ﷺ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكَبرياءُ رِدَائِي، فَمَنْ يُنَازِعُنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَقَدْ عَدَّبْتُه"⁶³ رواه مسلم.

وقد اهتم الصوفية بتأديب أنفسهم، وتصغير قيمتها أمام الخلق حتى لا يدعوا مدخلا للكبر لما له من عاقبة سيئة.

2.7.ج. المحبة: قال الحارث المحاسبي- رحمه الله-: "المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه"⁶⁴، والمحبة توجب اتباع المحب للمحبيب ومحبة ما يحب ونبذ ما يكره، والالتزام بما أمر والانتفاء عما نهى لذلك جاء على لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في محكم التنزيل قوله تعالى: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران: 31).

⁶² أبو بكر الكلاباذي، كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 126.

⁶³ صحيح مسلم

⁶⁴ الامام القشيري، الرسالة القشيرية، ص 461

«أَيُّ: يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ الْأَوَّلِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُحَبَّ».⁶⁵

ولتحصيل هذه المحبة على المرء أن يكون دائم النظر لإحسان الله إليه وضروب امتنانه عليه، فقد جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وهو حب مكتسب، فالإنسان مغمور بإحسانات الله إليه، ومتمكن من النظر فيها، وكلما طالع منه من مَن الله التي لا تقبل الحصر ولا العدَّ، كلما ازداد تعظيماً ومحبة للمنعمة عليه، وإن داوم على ذلك بإخلاص وشكر، كافاه المولى حينئذ بكشف الحجب، وإزالة الموانع عن ناظر القلب، حتى يرى جمال الحقِّ وكماله، فتترسخ عندها المحبة في الإنسان ظاهراً وباطناً ويكون عبداً محباً لخالقه، متصرفاً وفق إرادته، عاملاً بأوامره ومجتنباً لنواهيه ومحققاً لمقصوده من خلقه.⁶⁶

2.7.د. الإخلاص والصدق: قال القشيري- رحمه الله:- «الإخلاص: أفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التَّقَرُّبَ إلى الله سبحانه دون أي شيء آخر؛ من تصنُّع لمخلوق، أو اكتساب محبة عند النَّاسِ، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التَّقَرُّبِ به إلى الله تعالى».⁶⁷

أما الصِّدْق فهو عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة، قال تعالى: "وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" (النساء: 69).⁶⁸

وهو إسقاط حظوظ النَّفْسِ في الوجهة إلى الله تعويلاً على ثلج اليقين، أو استواء الظاهر والباطن في الأقوال والأفعال والأحوال، وحاصله تصفية الباطن من الالتفات إلى الغير بالكلية. والفرق بينه وبين الإخلاص أن الإخلاص ينفي الشرك الخفي والجلي، والصدق ينفي النِّفاق والمداينة.⁶⁹

⁶⁵ إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد سلامة، دار طيبة للنشر، ط 2، 32/2.

⁶⁶ رسالة المسترشدين، بتصرف، ص 244.

⁶⁷ الرسالة القشيرية، ص 321.

⁶⁸ القشيري، ص 323.

⁶⁹ معراج التشوف، ص 34.

ومن آثاره، صدق الانسان في معاملته مع ربه ومع مخلوقاته، فلا يغش، ولا يخون، ولا ينافق، ولا يدهن، ولا يخشى في الله لومة لائم، بل يكون الحق عنوانه والتوكل على الله عماده، وخدمة خلقه غايته.

2.7. هـ المراقبة والمحاسبة: عرفها الشيخ ابن عجيبة قائلاً: «المراقبة: إدامة علم العبد بإطلاع الرب، أو القيام بحقوق الله سرا وجهراً خالصاً من الأوهام، صادقاً في الاحترام، وهي أصل كل خير، وبقدرها تكون المشاهدة، فمن عظمت مراقبته، عظمت بعد ذلك مشاهدته. فمراقبة أهل الظاهر: حفظ الجوارح من الهفوات، ومراقبة أهل الباطن: حفظ القلوب من الاسترسال مع الخواطر والغفلات، ومراقبة أهل باطن الباطن: حفظ السر من المساكنة إلى غير الله».⁷⁰

وقال القشيري-رحمه الله:- «المراقبة عند أهل هذه الطائفة: أن يصير الغالب على العبد ذكره بقلبه أن الله مطلع عليه على الدوام، فيخاف سطوات عقوبته في كل نفس، ومهابه في كلوقت»، ويقول: «المراقبة: هي علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، وهذا أصل كل خير».⁷¹ والمراقبة في ثلاثة أشياء: مراقبة الله في طاعته بالعمل، ومراقبه الله في معصيته بالترك، ومراقبة الله في الهم والخواطر، لقول النبي ﷺ عن الاحسان: "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"⁷²، ومراقبة العبد لله عز وجل أشد تعباً على البدن من مجاهدة قيام الليل، وصيام النهار، وإنفاق المال في سبيل الله.

أما المحاسبة فهي عتاب النفس في تضييع الأنفاس والأوقات في غير أنواع الطاعات وتكون آخر النهار، كما أن المشاركة تكون أول النهار ويقول لنفسه في أول نهاره: هذا يوم جديد، وهو عليك شهيد، فاجتهد في تعمير أوقاته بما يقربك إلى الله ولو مت بالأمس لفاتك

⁷⁰ معراج التشوف إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، ص31، 32.

⁷¹ الرسالة القشيرية، ص294-296

⁷² محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق جماعة من العلماء، دار طوق النجاة، بيروت (لبنان)، ط1422هـ، كتاب الايمان، باب سؤال جبريل، حديث رقم 50، 19/1.

الخير الذي تفوزين به فيه، وكذلك يقول لها عند إقبال الليل ويحاسبها عند إدباره، وهكذا تحصل المشاركة أولاً والمحاسبة آخرًا والمراقبة دائماً.⁷³

ختاماً، إن أسلوب التّصوف يتّبع الشّريعة من النّاحية النّظرية أي الأسلوب الذي عيّنه الدّين وهو التّوحيد والطّهارة والصّلاة والصوم والحجّ والجهاد والزكاة وبيان المعاملات في الدّنيا والحساب في الآخرة، أما من النّاحية العملية التّصوف هو الطّريقة التي يتحقق من خلالها إجراء هذه التّشريعات وهذه المعاملات، وهي التي تزيّن الأعمال بصفاء الضمائر وتهذيب الأخلاق من الملوّثات كالرياء والجفاء، والشّرك الخفي، والحقّد، والحسد، والمكر، والغرور، فعمل الشّريعة يقتصر على هداية النّاس إلى الطّريق القويم، أمّا الطّريقة فهي السبيل للوصول إلى الحقيقة⁷⁴، وهي «سيرة مختصة بالسّالّكين إلى الله تعالى مشتملة على الأعمال، والرياضات، والعقائد المخصوصة بها، وعلى الأحكام والشّريعة، كليهما فهي أخص من الشّريعة لاشتمالها عليهما»⁷⁵.

وليتمكن الانسان من تزكية نفسه وتهذيبها، وإخراج السيئ منها، وتطويرها لطاعة المولى، لا بد له من مرشد وطريقة معينة يتبعها وفق أصول وضوابط معلومة، مقتدياً في ذلك بسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وقد اهتم الصوفية بذلك، فأسسوا قواعد وأصولاً لتهذيب النفس، وتفعيل حركيتها في الحياة وفق مراد الشارع عزوجل لا وفق هواها، مستشردين في ذلك بالقرآن الكريم، وسنة خير المرسلين، وسيرة الصحابة، والتابعين، والصالحين، وهو ما سنبينه باختصار بإذن الله في الآتي.

⁷³ معراج التشوف، ص 32.

⁷⁴ مجلة النور، العدد 18، ص 166.

⁷⁵ موسوعة التّصوف، ص 104.

8. دور الطريق الصوفي في الأخذ بيد المريد وإيصاله لمقامات عليّة في الدّارين:

إن للطريق الصوفي دور في بناء الانسان وتهذيبه من جميع النواحي، وسنقتصر على الجانب التربوي والجهادي لما لهم من أثر طيب على النفس والمجتمع.

1.8. الدور التربوي التهذيبي:

إن التصوف له مقدمة وحقيقة ونتيجة، فمقدمته خشية الله، وحقيقته صدق التّوجه إلى الله، ونتيجته الفناء في الله⁷⁶، ومن المعارف عليه بين العلماء، أن دور شيوخ التصوف والسلوك يقوم في الأساس على مهمني تربية المريد والتدرج به من أول السير إلى أن يصل لنتيجة السير وهي الوصول لحضرة الله سبحانه وتعالى، وهي مهمّة لا يتولاها إلا من جمع بين الرسوخ في العلم، وبين السير القلبي الكامل، وذلك باتّباعهم منهجا صارما في التربية، فهم يصرون على أن لا يدخل المريد إلى حضرتهم إلا من باب الشريعة، المبنية على أداء الفرائض، والتّوافل، والسنن، والوقوف عند حدود الأوامر والمنهيات كلّها، ثم إذا تأكد العارف بالله توفر ذلك في مريده، انتقل به إلى الشّروع في فروض أخرى باطنية مثل: الإخلاص، والصدق، والتّوكل، وطمأنينة القلب، فيطهرون بذلك نفسه من الأدران، ويجعلونها مرتبطة بالله، منقطعة عمّن سواه، حتى تصبح بيوتا خالصة لله سبحانه، ومأوى محبته، والفناء فيه⁷⁷، وحين يتشرب المرء حب الحق والتعلق به، يغدو الكون حينذاك مصحفا يقرأ فيه آيات ربه المنشورة في كتاب الكون المنظور، فلا يراها إلا مؤكدة لما في الكتاب المسطور ومتناسقة معه، تجعل المرء متيقنا أن لهذا الكون خالق واحد فرد صمد، ومحرك واحد، جعله متناسقا ومتكاملا ومنظما خادما للغاية الكبرى التي كلّف بها الانسان، فإذا ترسخت هذه الرؤية في المريد، يدخل حينها في علاقه روحية ليس مع أخيه الانسان فحسب بل مع الكون كله وهذا هو عين الرؤية الكونية التوحيدية التي تكلمنا عن علاقه التصوف بها سابقا.

⁷⁶ أحمد زروق الفاسي، مقدمة التصوف وحقيقته ونتيجته، عناية: نزار حمّادي، دار الامام بن عرفة، تونس، ص 14.

⁷⁷ مجلة الزاوية البلقاندية الهيرية، ص 44.

2.8. الدور الجهادي

إن للجهاد في الإسلام قوانين وشروط صارمة وضعها الله سبحانه وتعالى من خلال آيات كتابه الكريم، ذلك أن الأصل في الإسلام والمسلمين الدعوة إلى الله بالسلم والتي هي أحسن، قال تعالى: " اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَّعِدِينَ " (النحل: 125)، وعدم إكراه الغير على الدخول في الدين الإسلامي، تخويفا أو تهديدا، فقال تعالى: " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... " (البقرة: 256)، ولكن في مقابل ذلك حين يتعرض المسلمون للظلم والعدوان، فإن الله سبحانه وتعالى شرع للمسلمين حق الدفاع عن أنفسهم ورد الظلم عنها، فقال: "وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ " (الشورى: 41)، وقال أيضا: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (البقرة: 190)، "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ أَي: يبدؤونكم بالقتال، وَلَا تَعْتَدُوا فتقاتلوهم قبل أن يبدؤوكم، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أي لا ينصرهم ولا يؤيدهم ⁷⁸ . وفي القرآن الكريم والسنة النبوية العديد من التفصيل حول مشروعية الجهاد ومواجهة الظالمين المعتدين، والمتأمل في التاريخ الاسلامي يجد العديد من الأمثلة التي تؤكد دور مشايخ التصوف في الجهاد في سبيل الله، والدعوة إليه، وتحريض المؤمنين على ذلك، آخذين بقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ " (الأنفال: 65)، وقد كان منهم قادة لا ينكرهم جاهل بالتاريخ فضلا عن العالم به، أمثال سيدنا صلاح الدين الأيوبي، وسيدنا محمد فاتح، وسيدنا العز بن عبد السلام، وسيدنا أبي الحسن الشاذلي، وغيرهم كثير، ومن أقرب الأمثلة الواقعية التي تؤيد بها رأينا، جهاد شيوخ الجزائر الصوفية والمريدين للعدو الفرنسي إبان احتلاله للجزائر، ومن أبرزهم سيدنا الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان أول المجاهدين ضد العدو وذلك بداية من سنة 1832م، وكان مريد الطريقة القادرية ووالده سيدنا محي الدين الذي كان شيخ الزاوية آنذاك والمحرض لمريديها وطلابها بضرورة الجهاد، والشيخ الشريف سيدي محمد بن عبد الله شيخ الطريقة السنوسية في ورقلة سنة 1852م، وفي ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م وقاتل جنهم قتال

⁷⁸ تفسير ابن عجيبة، 1/ 222.

الأبطال، وقد دعمت الطريقة السنوسية كذلك الشيخ بوعمامة سنة 1908م، كما شاركت المجاهدة لالا فاطمة نسومر مريدة الطريقة الرحمانية في مقاومة العدو سنة 1849م، والشيخ محمد بن عبد الله مريد الطريقة الطيبية المعروف ببومعزة الذي أطلق مقاومة ضد العدو سنة 1845م⁷⁹، والشيخ الحداد، والشيخ المقراني... الخ من المشايخ والمريدين، الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل تحرير الوطن من تدنيس الكفار والمشركين، مستلهمين ذلك من عقيدتهم الصحيحة الراسخة التي تعلموها على المشايخ والعلماء الربانيين، ملتزمين في ذلك بوصايا سيدنا رسول الله ﷺ في مقاتلة العدو فلا يمسون أحدا بسوء من الشيوخ، أو الأطفال، أو النساء، أو العباد في صوامعهم، أو العاملين في حقولهم، ولا يهدمون البيوت، ولا يتلفون الأشجار، والأغراس، ولا يقتلون البهائم والدواب كما يفعل غيرهم من أعداء الإسلام، فهم قوم تهذبت نفوسهم وأرواحهم بفضل كثرة الذكر، وقيام الليل، ومجاهدة النفس فأصبحوا في صلة دائمة مع الله، متشوقين إلى لقاءه، فاسترخصوا أعز ما لديهم في سبيله حين نادى مناد الجهاد رغبه في لقائه، ونصرة لدينه، وخدمة لعباده.

⁷⁹ مقال الدور الجهادي للطرق الصوفية والزوايا بالجزائر أثناء الوجود الاستعماري، أهشماوي فتيحة، جامعة مستغانم، ص275.

9. الخاتمة:

بناء على ما ذكرنا في هذه الورقة البحثية يظهر لنا أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له كل شيء لخدمته فيما كُلف به، وكلفه بما يقيم مصالحه في الدارين، وترك له حرية الاختيار في الاستجابة للتكليف، فإن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعلها، ويتوقف هذا على حسب أخلاقه، فإن قدر الأمانة التي كُلف بها كان ذلك وفاء منه لخالقه، وتادبا معه، وإن أساء كان ذلك لسوء خلقه واتباع هوى نفسه، من هذا كان التوحيد الخالص مبدأ للأخلاق مع الخلق والحق، وجعل المتصوفة التصوف هو التخلق بالأخلاق الحسنة والحث عليها، فقالوا: "التصوف خلق"، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء"⁸⁰، وعليه فإن معرفة الإنسان لخالقه بكل صفاته تجعله عالما بالغاية التي خلق لها، فتستقيم بذلك أخلاقه في معاملاته، وعلاقاته مع ما ومن حوله.

ضف إلى ذلك أن التوجه بالعبادة إلى الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك بالإخلاص والصدق، يورث لدى العباد الثبات في صلتهم بالمعبود أولا، ثم في صلتهم بسائر المخلوقات ثانيا، نظرا لثبات المتوجه إليه (الله)، وثبات القواعد العامة في التعامل مع الإنسان والكون والله، بخلاف التوجه إلى غير الله كأن يكون المرء عبدا لنفسه أو عبدا للشيطان أو عبدا لمخلوق مثله، فتورثه هذه العبودية مذلة وصغارا عند الله وعند خلقه، لذلك كان رجال السلوك والتربية وأهل التصوف الحق ولا يزالون يحثون على تزكية النفس وجهادها متيقنين أن التغلب عليها تغلب على ما سواها من شهوات الدنيا ومغرياتها، فهم يسعون بالحث على التزكية إلى تحرير الفرد من هوى نفسه حتى يكون عبدا مقبلا على الله معرضا عمن سواه، ليتمكن من أداء ما كلف به وفق مراد المكلف، فالتصوف يحرر الإنسان من العبيثية في هذه الحياة ويوجهه نحو مقصدية الحياة ووظيفتها⁸¹، وإذا تحقق الإنسان بمقام توحيد الله سبحانه وتعالى استطاع بفضلله من بناء الحضارة الإنسانية التي دعا الأنبياء والرسول على مر الأزمان إلى إقامتها، حضارة تسعى لتحقيق سعادة الإنسان، وتحقيق مصالحه في الدارين، سعادة تحقق الكمال الإنساني في شقيه المادي والروحي، وما المعرفة الصوفية إلا اقتداء بمنهج سيد الخلق أجمعين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في

⁸⁰ الرسالة القشيرية، 442.⁸¹ عمار جيدل، ماهية الانسان من خلال رسائل النور، ص56.

فهم خطاب الله سبحانه وتعالى ومحاولة تنزيله إلى الواقع العملي وفق مراده، فاختار أهله مسلك التزكية بصفته مسلكا من مسالك البناء الحضاري واجتهدوا في تطبيقه أحسن تطبيق بما يتوافق مع سنن الله في خلقه، مؤمنين في ذلك بأن سبيل كل بناء حضاري هو مداواة النفوس وإصلاحها، فالصوفية قوم تحققوا بمقام الاحسان، فأحسنوا حب الله سبحانه وتعالى وحب نبيه، والافتداء به، والسير على نهجه، فصقّو قلوبهم للحق عما سوى الخلق، واجتهدوا في معرفة مولاهم والتقرب منه حبا له، وشكرا له على نعمه، فزادهم الله من فضله، وأنعم عليهم بمعرفته، وفهم المقصود من خلقه لهم، فداوموا بذلك على عبادته، والتقرب منه، شعارهم أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وذلك أسمى مقامات العبادة، وهذا ما يسخر الطريق بإذن الله لأداء الغاية الوجودية.

ختاما، نوصي بالاهتمام بالتراث الروحي الإسلامي، الذي هو جوهر الدين، وحقيقته، وموضوع علم التصوف، ورجال التربية والسلوك، فنحن في عصر طغت فيه المادّة، وشغبت على الروح حتى أفقدتها سكينتها، وأطفأت فيها جمرة الحياة، فأصبح المؤمن يطبق الدين كعادات وشكليات فقط، لا يتذوق حلاوة الطاعة والعبادة فخدمت فعاليته في الحياة، وحركيته، وتكاسلت نفسه عن تحقيق خلافتها لله على أكمل وجه.

- نوصي كذلك الجامعات والمعاهد والكليات الدينية بالاهتمام بهذا الجانب العلمي وفق الآليات المعتمدة حول التصوف في الإسلام، وأهميته في النهضة الحضارية للأمة في عصرنا الحالي.

- نوصي شيوخ الزوايا والطرق بالإكثار من النّشاطات العلمية والتعليمية، وخروجها من العزلة، وعرض فكرها على عامة الشعب، من خلال إقامة أيام فكرية، ودينية، للتعريف بمنهجهم الروحي، وبيان أحقيته في قيادة التفكير الديني للأمة، واستغلال الوسائل الحديثة في ذلك.

- كما لا يفوتنا أن نوصي الرسميين، بضرورة الاهتمام بالمرجعية الدينية الأصيلة، التي كان عليها سلفنا، من خلال تدريس العقيدة السنية الأشعرية، والفقه المالكي، وطريق السلوك الجنيدي، ومنع التثقيب عليها، وإحياء ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت ذات فائدة علمية كبيرة للوطن والأمة جمعاء، كي يستقر عليها أبناء جيلنا، وتكون مرجعية خير، وبركة، وحركة، على وطننا وأمتنا جميعا إن شاء الله.

قائمة المصادر والمراجع:

- أ. هشماوي فتيحة، مقال الدور الجهادي للطرق الصوفية والزوايا بالجزائر أثناء الوجود الاستعماري، جامعة مستغانم.
2. ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تح: أحمد رسلان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002م.
3. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تح: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، لبنان، ط1، 2009م.
4. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط3، 1414هـ.
5. أبو المعالي عبد المالك الجويني: كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد -تحقيق أسعد تميم- مؤسسة الكتب الثقافية -بيروت- ط1- 1985.
6. أبو النصر سراج الطوسي، اللّمع، تحق: عبد الحليم محمود، طه سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، ط1960م.
7. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين - دار الندوة الجديدة-بيروت.
8. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، أشرفت عليه اللجنة العلمية لدار المنهاج، دار المنهاج، جدة، السعودية، ط2011م.
9. أبوبكر الكلاباذي، كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، ص126.
10. أحمد زروق الفاسي، مقدمة التصوف وحقيقته ونتيجته، عناية: نزار حمّادي، دار الامام بن عرفة، تونس، ص14.
11. أسعد السحمراني، موسوعة التصوف، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 2015م، ص64-65.
12. إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد سلامة، دار طيبة للنشر، ط2، ج2، ص32.
13. بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، تطبيق رسائل النور.
14. بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم صالحي، تطبيق رسائل النور.
15. البيه خولي، آدم عليه السلام، مكتبة وهبة، مصر، ط3، 1974م.
16. البوطي، شرح الحكم العطائية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2003م.
17. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان الداودي، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1412هـ.
18. الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
19. الرسالة القشيرية، الامام القشيري، تح: يوسف علي بديوي، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2014م.
20. سعيد حوى، تزكية الأنفس، دار السلام، القاهرة، مصر، ط18، 2014م.
21. الشاطبي، الموافقات، تح: مشهور بن حسن ال سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط1، 1997م.
22. طه جابر العلواني: الأزمة الفكرية المعاصرة، المعهد العالي للفكر الإسلامي-هيروندن-ط1.
23. طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي (مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر)، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، 2001.

24. طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، السعودية، ط4، 1994م.
 25. عبد السلام بلقائد، محسن الحارث، شمس العارفين في تقلب الساجدين، ص147، طبعة الزاوية البلقائدية الهبرية.
 26. عبد الفتاح أبو غدة، رسالة المسترشدين، مؤسسة الرسالة، دمشق سوريا.
 27. عبد الكريم الجيلي، الانسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، تح: صلاح بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط1/ 1997م.
 28. عبد الله أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي.
 29. عبد المجيد النجار، خلافة الانسان بين العقل والوحي، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط3، 2000م.
 30. عبد المجيد النجار، مبدأ الانسان، دار الزيتونة للنشر الرباط، المغرب، ط1، 1996م.
 31. عمار جيدل، ماهية الانسان من خلال رسائل النور، دار سوزلر للنشر.
 32. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ.
 33. مجلة الأنوار المحمدية، الزاوية البلقايدية الهبرية، العدد 24، 2020م.
 34. مجلة النور، مؤسسة اسطنبول للثقافة والعلوم، العدد 18، جوان 2018م، ص166.
 35. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق جماعة من العلماء، دار طوق النجاة، بيروت (لبنان)، ط1422هـ.
 36. محمد خير فاطمة، حقائق التصوف المعتدل، دار العصماء، دمشق، سوريا، ط1، 2019.
 37. محمد سعيد رمضان البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، دمشق سوريا، ط2008م.
 38. مرتضى الزبيدي، تاج العروس، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
 39. النورسي، ترجمة احسان قاسم الصالحي، تطبيق رسائل النور، اللمعات.
 40. وهبة الزحيلي، الوجيز في أصول الفقه، دار الخير، دمشق، سوريا، ط2، 2006م.
 - 41.
- <https://www.almaany.com/ar/dict/arar/%D8%AA%D9%81%D9%83%D9%8A%D8%B1/> 02/12/2023,
- 16.00 سا، الجزائر العاصمة.